



تحديات الإثنوغرافيا الافتراضية في ظل هيمنة البحوث الكمية على الدراسات الإعلامية والاتصالية في البيئة الرقمية.

Challenges of virtual ethnography under the dominance of quantitative research on media and communication studies in the digital environment.

دراجي بوطي. Daradji bouti.

طالب دكتوراه جامعة الشهيد حمه لخضر- الوادي كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.

قسم علوم الإعلام والاتصال مخبر التنمية والخدمة الاجتماعية.

PhD Student University hamma lakhdar-eloued faculty of social and human sciences.

Information and Communication Science. Development and Social service laboratory.

derradji-bouti@univ-eloued.dz

derradji-bouti@univ-eloued.dz

دراجي بوطي.

تاريخ النشر: 2025/06/26

تاريخ القبول: 2025/01/11

تاريخ الاستلام: 2023/05/04

الملخص:

نسعى في هذه الورقة البحثية لتناول أحد الإشكاليات البحثية في علوم الإعلام والاتصال، وبالتحديد رهانات و تحديات البحوث و الدراسات الإثنوغرافية في البيئة الرقمية، إن التحول الإثنوغرافيا من شكلها التقليدي كممارسة بحثية ميدانية مباشرة إلى الفضاء الافتراضي، ولد مجموعة من التحديات التي تواجه الباحثين من حيث ضرورة تكييف الإجراءات و الأساليب و الأدوات البحثية مع السياق الجديد الذي فرضته البيئة الرقمية، وهذا في ظل استمرار الهيمنة الكمية التي تقوم على التحليل الكمي و الإحصائي للبيانات، كما سنحاول في هذا البحث مناقشة رهانات و الآفاق المستقبلية للبحث الإثنوغرافي الرقمي و الفرص التي أتاحها الوسائط الجديدة أمام الباحثين.

الكلمات المفتاحية: الإثنوغرافيا، الإثنوغرافيا الافتراضية (الرقمية)، البحوث الكمية، البيئة الرقمية، السياق الرقمي.

Abstract:

In this paper, we seek to address an aspect of the most important problems in media and communication science research, specifically the stakes and challenges of virtual

ethnography. Adapting research procedures, methods and tools to the new context imposed by the digital environment, and this is in light of the continued quantitative dominance that is based on quantitative and statistical analysis of data. In this research, we will try to discuss the bets and future prospects for digital ethnographic research and the opportunities offered by the new media. in front of the researchers.

Keywords: Ethnography, virtual (digital) ethnography, quantitative research, digital environment, digital context.

مقدمة:

لقد برز تأثير التكنولوجيا و خصائصها على الحياة اليومية لدى الأفراد و الجماعات و على مناهج البحث العلمي فالسمة الأبرز للبحوث في البيئة الرقمية هو تبني أغلب الباحثين للمقاربات الكمية سواء في شكلها التقليدي أو المناهج الحاسوبية التي تم استحداثها، فقد امتد الصراع الكمي و الكيفي من البحوث الإعلامية التقليدية إلى البحوث و دراسات الوسائط الجديدة، إن تعقد الظاهرة الاتصالية في الواقع الافتراضي ولد الحاجة إلى تبني مقاربات و مناهج و أدوات جديدة من أجل فهم أعمق لهذه الظواهر، و برز التوجه الجديد للبحث الإثنوغرافي الذي انتقل من الواقع الميداني إلى البيئة الافتراضية مع اندماج الأفراد و الجماعات و زيادة استخدامهم لمواقع التواصل الاجتماعي و الوسائط الجديدة و ظهور المجتمعات الافتراضية ما فتح آفاقا واسعة أمام الباحثين الإثنوغرافيين.

إن توجه البحث الإثنوغرافي من واقع الممارسة الميدانية و المعاشية المباشرة للباحث مع المبحوثين إلى الفضاء الافتراضي، كل هذا أدى هذا إلى ضرورة التغيير في خصوصيات البحث و أساليبه و أدواته، فالتواصل مع المبحوثين اتخذ أشكالا جديدة و الملاحظة بالمشاركة و المقابلات المعمقة أصبحت تتم عبر وسيط إلكتروني، و هذا التوجه الجديد في البحوث الكيفية و البحث الإثنوغرافي بصفة خاصة جاء نتيجة للحاجة لتكييف المناهج و الأساليب البحثية لتتلاءم و دراسة السلوك الاتصالي و التفاعلات الاجتماعية و مختلف الثقافات في السياق الرقمي.

إن البحوث الإثنوغرافية في دراسات الوسائط الجديدة تواجه العديد من التحديات و الصعوبات، فبالإضافة لسيطرة الدراسات الكمية و طغيان البيانات الضخمة على الدراسات الإعلامية، فإن هذا التوجه الجديد أثار الكثير من الاختلاف و الجدل حول إجراءاته المنهجية و أساليبه و أدواته البحثية، و المخاوف الأخلاقية و ما يجب أن يدرس و ما يجب تفادي دراسته في السياق الرقمي.

و انطلاقا من النقاط السابقة و المتعلقة بالدرجة الأولى برهانات و تحديات الإثنوغرافيا في دراسات البيئة الرقمية نطرح التساؤل الرئيس التالي:

ما هي أبرز تحديات و رهانات الإثنوغرافيا الافتراضية في ظل هيمنة البحوث الكمية على الدراسات الإعلامية و الاتصالية في البيئة الرقمية؟

و للإجابة على هذا التساؤل الرئيسي قسمنا هذه الورقة البحثية إلى المحاور التالية:

- الإثنوغرافيا من الممارسة الميدانية إلى الفضاء الافتراضي.

- صعوبات و تحديات الإثنوغرافيا الرقمية في ظل سيطرة البحوث الكمية على دراسات الوسائط الجديدة.

- الرهانات و الآفاق المستقبلية للبحوث الإثنوغرافية في السياق الرقمي.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى الوصول لمجموعة من الأهداف البحثية يمكن إنجازها فيما يلي:

- التعرف على الإثنوغرافيا في شكلها التقليدي الواقعي الذي يقوم على انخراط الباحث مع المشاركين مباشرة، ثم إلقاء الضوء على التوجه الجديد للباحثين لدراسة المجتمعات الافتراضية في البيئة الرقمية، وكيف انتقلت الإثنوغرافيا من واقع الممارسة الميدانية إلى العالم الافتراضي.

- التعرف على أبرز التحديات و الصعوبات البحثية التي تواجه الدراسات الإثنوغرافية في السياق الرقمي في ظل سيطرة الاتجاه الكمي على الدراسات الإعلامية و الاتصالية.

- التعرف على أبرز الرهانات و الآفاق المستقبلية للإثنوغرافيا الرقمية، و الفرص التي تتيحها البيئة الرقمية للباحثين، و إمكانية تكييف و استحداث أساليب و أدوات بحثية جديدة تتماشى مع طبيعة و خصوصية الظاهرة الاتصالية في سياقها الرقمي.

منهج الدراسة:

سنعتمد في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي كونه المنهج الأنسب لفهم ماهية البحوث و الدراسات الإثنوغرافية و امتدادها من الواقع الميداني إلى الفضاء الافتراضي، و لكون التحديات و الرهانات و الفرص التي تواجه الإثنوغرافيا الافتراضية تتطلب تناولها بالعرض و التحليل بناء على آراء الباحثين و محاولات تكييف الإجراءات المنهجية و الأساليب البحثية مع خصائص الوسائط الجديدة.

المحور الأول: الإثنوغرافيا من الممارسة الميدانية إلى الفضاء الافتراضي:

سعى الباحثون من خلال الدراسات الإثنوغرافية إلى دراسة المجتمعات و الممارسات الثقافية و طريقة الحياة لدى المجتمعات ميدانيا و بمشاركة الباحث في الطقوس و الممارسات و اندماجه بشكل مباشر مع أفراد القبيلة أو المجتمع محل الدراسة، و مع ظهور الميديا الجديدة و ما تبعها من مجتمعات افتراضية تتميز بخصوصية و لها ثقافتها الرقمية، اتجه الباحثون الإثنوغرافيون لتكييف البحث الإثنوغرافي ليتلاءم مع خصوصية السياق الرقمي، فانتقلت الدراسات الإثنوغرافية من الميدان إلى العالم الافتراضي.

أولاً- الإثنوغرافية التقليدية (خارج الخط):

تعرف الإثنوغرافيا بأنها "دراسة وصفية لأنشطة جماعة إنسانية معينة، سواء كانت جماعة بدائية تقليدية أم جماعة معاصرة و متمدنة، بالتركيز على بنيات القرابة، و التقنيات المادية، و المعتقدات الدينية، و التنظيم المجتمعي، و استعمال آلات العمل..."، و يعرفها حسين فهميم "هي الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة و مجموعة التقاليد، و العادات و القيم، و الأدوات و الفنون، و التأثيرات الشعبية لدى جماعة معينة، أو مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة". (حمداوي، 2020، ص 119-120)

و يمكن تعريفها بأنها "فن و علم وصف مجموعة بشرية، مؤسساتها و سلوكياتها الشخصية و منتجاتها المادية و معتقداتها، و يهتم الباحثون الإثنوغرافيون بالدرجة الأولى بالحياة الروتينية و اليومية للأفراد الذين يدرسونهم، عن طريق جمع بيانات حول التجربة البشرية المعاشة، و يتم إجراء البحث الإثنوغرافي في الميدان، و يكون الباحث قدر الإمكان، مشاركاً شخصياً في حياة من هم تحت الدراسة بالإضافة لكونه مراقباً موضوعياً لتلك الحياة". (angrosino, 2007, p14-15)

لقد بدأت الدراسات الإثنوغرافية بدراسة المجموعات البشرية مع علماء الأنثروبولوجيا في أواخر القرن (19) و بداية القرن (20) الذين كانوا مقتنعين أن التكهانات و البحوث النظرية للفلاسفة الاجتماعيين الأوائل غير كافية لدراسة طرق عيش الأفراد و الجماعات،

و أن على العلماء و الباحثين معايشة التجربة الإنسانية مباشرة في الميدان، و مع بداية العشرينيات من القرن الماضي امتد البحث الإثنوغرافي ليرتبط بمجموعة متنوعة من التوجهات النظرية مثل التفاعلية الرمزية، النظرية النقدية، الدراسات الثقافية، اتجاه ما بعد الحداثة.(angrosino,2007,p2-3)

أما في علوم الإعلام و الاتصال فقد ظهرت مقاربة "أنثروبولوجيا الاتصال" سنة 1967 من خلال عالم اللسانيات الأمريكي "اميس دال" الذي أكد على القيمة الاتصالية للسلوكيات و الممارسات اليومية التي على إثرها يتم التفاعل و تبادل الأدوار بين الأفراد و الجماعات. (تمار، 2008، ص2-3)

لقد برز الاهتمام بالمقاربة الإثنوغرافية في علوم الإعلام و الاتصال لدراسة تأثير وسائل الإعلام على الجمهور و ذلك بعد سيطرة البحوث الكمية على دراسات الجمهور لوقت طويل بحيث لم تقدم هذه الدراسات تفسيراً لكيفية تفاعل الفرد و فهمه و تأويله للمضامين الإعلامية و كيفية تشكيل الاتجاهات و الآراء و انعكاسها على سلوك الفرد، بحيث ظهر هذا التوجه الجديد تماشياً مع تطور البحوث و الدراسات الإعلامية من خلال الاهتمام بتفاعلات المتلقي و علاقته بوسائل الإعلام و معايشة الباحث للوقائع و الممارسات الاتصالية في الميدان و مشاركة المبحوثين. (بلقي، و سيفون، 2021، ص 44)

ثانياً- الإثنوغرافيا الرقمية (على الخط):

إن التحولات التي عرفها المجال التكنولوجي و ظهور الوسائط الجديدة و الممارسات الإعلامية و الاتصالية في البيئة الرقمية، أدى إلى محاولات لتكييف المناهج التقليدية و استحداث أخرى جديدة من أجل فهم شامل و تفسير أكثر عمقا للظواهر الاتصالية، و من هنا ظهرت الإثنوغرافيا الافتراضية و تسمى كذلك الإثنوغرافيا على الخط أو الرقمية، كمحاولة لتكييف هذه المقاربة بإجراءاتها المنهجية و أساليبها و أدواتها البحثية لتتناسب مع طبيعة و خصوصية السياق الرقمي.

و تعرف الإثنوغرافيا الرقمية بأنها " منهج يدرس ثقافات الحياة الواقعية من خلال السمات و الخصائص المميزة للوسائط الرقمية، و الاستقصاء الإثنوغرافي في المجال الرقمي هو وسيلة لتعزيز فهم المعاني و كيف يتم استخدام التكنولوجيا و التجارب الثقافية عبر الوسيط الرقمي، إن العوالم الافتراضية عبر المنصات الرقمية هي مثال واقعي على الحقائق الثقافية و التي تستحق الدراسة الإثنوغرافية".(Kaur-Gill, Dutta, 2017, p.2)،

و تتعدد البحوث الإثنوغرافية في السياق الرقمي حيث لخصها بعض الباحثين وفق غايات البحث و هي إثنوغرافيا الجماعات الافتراضية و مواقع الميديا الاجتماعية، و إثنوغرافيا عبر الخط، و إثنوغرافيا الممارسات الإبداعية، فإذا كانت الإثنوغرافيا التقليدية تقوم على اللقاء المباشر بين الباحث و المبحوثين و معايشتهم فترة من الزمن، فإن لقاء المبحوثين و معايشتهم في الفضاء الافتراضي يجري عبر وسيط تقني، و ملاحظة و قابلة المبحوثين كذلك تتم عبر عدة تقنية (العياضي، 2022، ص 19-20)، و يعتمد الباحثون غالباً على طريقتين لإجراء البحث الإثنوغرافي الافتراضي :

- تقييم مصادر المتعلقة بالتفاعل و الآثار التي يتركها المستخدمون مثل "النصوص، الصور، الرموز التعبيرية، مقاطع الفيديو..." و هذا من خلال مراقبتها عن بعد بحيث يؤدي الباحث دور الملاحظ دون أن المشاركة في التفاعلات الاجتماعية في الفضاء الاتصالي، و من خلال هذه الطريقة غالباً ما يتم إهمال عنصر التزامنية في أثناء عملية الملاحظة.

- مشاركة الباحث ضمن البيئة الاتصالية و التفاعلات الاجتماعية في الفضاء الافتراضي الذي يدرسه، و ذلك من أجل فهم الظاهرة في سياقها الموضوعي و الزمني بشكل أفضل رغم إشكالية موضوعية النتائج المتوصل إليها.(بصيص، و قدي، 2022، ص 87)

إن تغير السياق الذي تجري فيه العملية الاتصالية و الممارسات الثقافية و تحوله من الواقع المعاش إلى العالم الافتراضي، فاللقاء المباشر و الملاحظة الميدانية يتم إجرائهم عبر وسيط تقني، و الكلام و الإيماءات و الحركات يقابلهم الرموز التعبيرية و الإيموجي و

الصور، كل هذا يفرض على الباحث الإثنوغرافي التعامل معه (السياق الرقمي) بشكل مختلف كلياً والعمل على تكييف إجراءاته المنهجية ومحاولة استحداث أدوات وتقنيات بحث جديدة وتوظيف ما تتيحه التكنولوجيا في تطوير بحثه.

ثالثاً: تقنيات وأدوات المنهج الإثنوغرافي:

تمتاز البحوث الإثنوغرافية بغيرها من البحوث الكيفية بخاصية المرونة سواء في الخطوات المنهجية أو الأدوات والتقنيات البحثية بحيث تكون قابلة للتكيف من طرف الباحث على حسب رؤيته واحتياجاته وما تتطلبه الظاهرة المدروسة، وعلى العموم تشترك أغلب الدراسات الإثنوغرافية في مجموعة من الأدوات البحثية:

1- الملاحظة:

وتعرف الملاحظة عموماً بأنها المشاهدة "المنظمة وتوجيه لعقل الباحث وحواسه حول تقييم ظاهرة معينة من الظواهر الاجتماعية بما يمكن الباحث من فهم سلوك الفرد أو الجماعة وظروفهم المحيطة مع استقرار ما يحدث من ردود الأفعال وذلك من خلال الربط بين المشاهد والمسموع والمحسوس والمدرّك". (أبو المعاطي، 2014، ص 244-245)، ويتطلب هذا النوع من الملاحظة من الباحث الإثنوغرافي النزول للميدان وملاحظة المشاركين (المبحوثين) ومتابعة نشاطاتهم المختلفة، فالباحث يقوم بدور الملاحظ والمشاهد، فيدون ما يراه ويسمعه ويحس به، دون أن المشاركة والاندماج الكلي مع أنشطة وممارسات العينة المدروسة، وغالباً ما يتميز هذا المستوى من الملاحظة بالقصور والمحدودية في الحصول على المعلومات، وأنها لا تفي بالغرض العلمي المطلوب. (بلغيثية، 2018، ص 751)

2- الملاحظة بالمشاركة:

من سمات الدراسات الإثنوغرافية نزول الباحث للميدان الذي ينوي دراسته وأن يقترب ما أمكن من أنشطة الآخرين وخبراتهم اليومية، ويتطلب هذا الاقتراب في حده الأدنى القرب الجسدي والاجتماعي من مجالات الحياة اليومية للناس وأنشطتهم، وعلى الباحث أن يكون في قلب المواقع والأحداث الرئيسية في حياة الناس لكي يلاحظها ويفهمها، إن انغماس الباحث في الأحداث يمكنه من أن يعايش بنفسه مباشرة الروتين والظروف المعتادة التي يمارسها الناس في ظلها حياتهم العادية، والقيود والضغوط التي تتعرض لها هذه الحياة. (إيمرسون، وآخرون، 2010، ص 54)

ولكي تكون الملاحظة بالمشاركة ناجحة على الباحث الالتزام بعدد من الشروط أهمها:

- على الباحث أن يكون على صلة وثيقة بمجتمع المشاركين (المبحوثين) وأن يشترك بمختلف أنشطتهم وجوانب حياتهم طيلة فترة إجراء البحث.

- ضرورة الملاحظة الشاملة لكل جوانب الحياة الاجتماعية حتى وإن اقتصر البحث في جانب معين من جوانبها وأن يحرص الباحث على التحدث بلغة المشاركين وتبني معتقداتهم وقيمهم حتى يلقى قبولهم ويسهل عليه الاندماج بينهم.

- على الباحث أن يحرص على تدوين ملاحظاته اليومية، ويرى أغلب الباحثين أن تدوين الملاحظات لا يجب أن يكون خلال عملية الملاحظة لكي لا يؤثر على دقتها وألا يتم تأجيلها لليوم الموالي تجنباً للنسيان وضباب التفاصيل، وإنما يكتفي الباحث بتدوين ما عايشه في نهاية كل يوم. (دهان، 2017، ص 35)

وفي الملاحظة بالمشاركة الافتراضية غالباً ما يكون الباحث عضواً فاعلاً داخل المجتمع الافتراضي، ويكون حاضراً أثناء حدوث الظاهرة، أو يكون بكل بساطة عرضة للفعل أو جزء من التفاعل الإلكتروني وتستعمل هذه الوسيلة خاصة في دراسة المجتمعات

المغلقة و صعوبة الدراسة، بحيث تمكن الباحث من أن يكون جزءا من المجتمع المدروس، و في نفس الوقت يكون أفراد المجتمع المدروس على طبيعتهم الأولية بشرط أن لا يؤثر فهم الباحث و لا في بيئتهم، و أهم ما يجب أن يميز الملاحظة بالمشاركة الإلكترونية هو الوصف الدقيق لكل ملامح الظاهرة من مكان وقوعها و مختلف الآراء و المشاعر و ترجمة تأويل الباحث للأيقونات و الرموز المستخدمة داخل المجتمعات الافتراضية.(بوجفجوف، 2022، ص284)

3- المقابلة:

و هي إحدى وسائل جمع المعطيات و البيانات من مصدرها، و تتم بين طرفين حول موضوع محدد، منطلقا من أسباب و محققا لغايات، بهدف التعرف عن الظاهرة أو الموضوع، بالبحث عن العلل و الأسباب من خلال لقاء مباشر بين الباحث و المبحوث.(عماد، 2007، ص72)

و الغرض من المقابلة الكشف عن المعاني الثقافية التي يستخدمها المبحوثون، و البحث و التحري عن نواحي الثقافة التي يتم ملاحظتها، و التي تكون لا تزال غير واضحة أو مهمة برغم أنها كانت موضع ملاحظة مباشرة و دقيقة.

و تختلف المقابلات الإثنوغرافية عن المقابلات التفاعلية من عدة نواحي، في المقابلات الإثنوغرافية يعرف من كل من طرفي المقابلة (الباحث و المشارك) بعضهما قبل إجرائها، و سبق أن تكلم كل منهما الآخر، و المقابلات الإثنوغرافية لا يحدد جدول أو برنامج لها عادة و تعقد دون تحضير لها في أثناء قيام الباحث بالملاحظة بالمشاركة مثلا، و تكون المقابلة الإثنوغرافية غالبا أقصر زمنا من المقابلة التفاعلية، كما أنها تركز أكثر من غيرها على موضوعات محددة كان يطرح الباحث أسئلة حول موقف لاحظته كي يفهم أسبابه و ردود الفعل حوله، أو عن معنى رد فعل أو لفظة معينة.(جوبو، 2014، ص384-385)

و تمكن المقابلة الإلكترونية الباحث من التعرف على المشاعر و الآراء في وضعية ما أو في مشكلة ما أو سلوك معين، و المقابلة الإلكترونية أداة مهمة تتيح للباحث معرفة مدركات و تمثيلات المستخدمين للقضايا و المواقف لفهم الدوافع التي تحدد السلوك، فهي تعتبر تقنية مباشرة و تكون غالبا وجها لوجه، عن طريق استخدام العدة الالكترونية كالكاميرا و الصوت، ما يوفر للباحث الفرصة التعرف العميق على المبحوثين و الحصول على المعلومات التي تخدم بحثه.(بوجفجوف، 2022، ص285)

المحور الثاني: صعوبات وتحديات البحث الإثنوغرافي في السياق الرقمي ظل سيطرة البحوث الكمية:

إن سيطرة البحوث الكمية لم تقتصر على الدراسات الإعلامية التقليدية بل استمرت هيمنة هذا النوع من البحوث كذلك في دراسات الوسائط الجديدة، و ذلك تماشيا مع رؤية الاتجاه الوضعي في هذا الصدد تشير "كلير هيوستن و زملاؤها" بأن الانترنت لطالما اعتبرت كأداة تحليل قبل أن تكون موضوعا له، ذلك أنها سهلت على الباحثين الوصول إلى عدد كبير من المبحوثين كان يتعذر الوصول إليهم سابقا (هميسي، 2014، ص74)، و مما لا شك فيه أن البيئة الرقمية تختلف بشكل كبير على البيئة الإعلامية و الاتصالية في شكلها التقليدي، الأمر الذي جعل فريقا من الباحثين يعمل على توظيف المناهج التقليدية في السياق الرقمي و العمل على تطويرها لتتماشى مع خصوصية الظواهر الجديدة بينما اتجه فريق آخر إلى العمل على استحداث و ابتكار مناهج جديدة و الاستفادة من العدة الرقمية التي تتيحها التكنولوجيا.

فإلى جانب توظيف المناهج و تقنيات البحث التقليدية في دراسة ظواهر الإعلامية و الاتصالية كالدراسات المسحية و قياس الرأي العام و الاستبيانات، فقد وظف الباحثون كذلك التقنيات الحاسوبية في البحث العلمي من خلال مجموعة من المناهج تعرف بالمناهج الحاسوبية و تستند على العدة التكنولوجية من (برامج، و تطبيقات الانترنت، و محركات للبحث) حيث تعمل الخوارزميات في هذه التطبيقات على الجمع الآلي لما يتركه مستخدمو مواقع التواصل و المنصات الرقمية من آثار و تظهِرها في رسوم بيانية و خرائط توضيحية و جداول، وتعتمد على الرياضيات و الإحصاء الكمي و البيانات الضخمة.(العياضي، 2022، ص16)

إن تغير السياق الاتصالي في البيئة الرقمية و سيطرة البحوث الكمية على الدراسات في الميديا الجديدة من أهم التحديات التي تواجه الباحثين الإثنوغرافيين بسبب العجز عن تكييف الأدوات البحثية و العجز عن الاستفادة المثلى من العدة التكنولوجية في هذا النوع من الدراسات، فالبحوث في البيئة الرقمية لا تحكمها الجغرافيا و العادات و التقاليد و لا تضبطها مؤسسات التنشئة الاجتماعية كالأُسرة و المدرسة كم هو الحال في البيئة الواقعية، و إنما يتأثر الفرد بمجموعة من الخصائص الرقمية كتدفق الانترنت، عدد الأصدقاء و المتابعين، مما يتطلب استحداث أدوات منهجية تراعي هذه الخصوصيات للظواهر الإعلامية و الاتصالية في البيئة الرقمية.(بطاهر، 2021، ص 58)، إن البحوث الإثنوغرافية في السياق الرقمي تواجه العديد من الصعوبات و العوائق المنهجية لعل أبرزها:

- في هذا الإطار يرى الباحث "توم بولستورف" أن التهديد الجدي لصرامة البحوث الإثنوغرافية الرقمية و شرعيتها يكون عند ادعاء الباحثين أنهم قاموا بهذا النوع من البحوث لمجرد أنهم أداروا حوارات منعزلة و تحليل للمدونات و بعض النصوص و يعتبرونها ملاحظة بالمشاركة و هذا أمر مضلل، فهذه الأخيرة (الملاحظة بالمشاركة) تسمح بدراسة الاختلافات بين ما يقول الأفراد أنهم يقومون به و ما يقومون به فعلا، بعكس الحوارات و مجموعات المناقشة التي رغم أنها يجب أن تكون جزءا من أي مشروع إثنوغرافي لكنها في نفس الوقت لا تستطيع الكشف الحقائق الثقافية و الممارسات المرتبطة بها و هو ما يقود الباحثين إلى خلط التمثيل و ما يقال، بالواقع و الممارسات المجسدة.(هورست، و ميلر، 2020، ص 131-133)

- كما يرى العديد من الباحثين أن الإثنوغرافيا الرقمية تفصل بين الممارسة الإعلامية و الثقافية و الاجتماعية في الواقع اليومي و تلك التي تجري في الواقع الافتراضي، إضافة إلى إعراض الباحثين عن توظيف العدة الرقمية في الدراسة بعكس المناهج الحاسوبية التي استفادة مما أتاحتها التكنولوجيا من تطبيقات و محركات بحث و برامج و فرة رقمية.(العياضي، 2022، ص 20)

- صعوبة الوصول للجماهير و (الإساءة بهم) و التركيز على مجموعة بعينها لدراستها بسبب اتساع الفضاء الافتراضي و عدم ارتباطه برقعة جغرافية معينة أو جماعة ما، كما لا يمكن تحديد جماعة المشاركين وفق معايير و خصائص ثقافية محددة ما يتناقض مع أهداف البحث الإثنوغرافي الذي يسعى لدراسة الممارسات الثقافية اليومية لدى مجموعة من الأفراد.

- قصور الملاحظة و المقابلة عبر الانترنت فالتفاعل عادة ما يكون مكتوبا أو مسموعا فقط و هذا بدوره قد يؤثر على طبيعة البيانات المتحصل عليها، فاللقاء عبر وسيط تقني يؤدي بالضرورة إلى فقدان العديد من العناصر التفاعلية كلغة الجسد و إيماءات الوجه و حركات الأطراف و نغمة الكلام و التي تعد ضرورية لتفسير و التأويل، فالافتراضي من الصعب ملاحظته و الإحاطة به و تفسيره بشكل دقيق.(بلقي، و سيفون، 2021، ص 49)

- كما تطرح البحوث الإثنوغرافية على الخط العديد من القضايا الأخلاقية في البحث سواء للباحث أو المشاركين، خاصة المتعلقة بانتهاك معلومات و خصوصيات المستخدمين و النشاطات التي يقومون بها، و احتمال التعامل مع مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي من أصحاب الهويات المزيفة و منتحلي صفة الغير إضافة و ما يسمى بالذباب الإلكتروني، ما قد يحول دون الوصول إلى بحث ذو أصالة و قيمة علمية.

المحور الثالث: الرهانات والآفاق المستقبلية للبحوث الإثنوغرافية في السياق الرقمي:

لقد اتجه اهتمام العديد من الباحثين نحو توظيف المقاربة الإثنوغرافية في دراسات الوسائط الجديدة و هذا قد يرجع إلى عجز البحوث الكمية على تقديم تفسير شامل و دقيق و الإحاطة بمختلف جوانب الظواهر الإعلامية و الاتصالية في البيئة الرقمية، رغم ما تتميز به هذه الأخيرة خاصة (المناهج الحاسوبية منها) من قدرة هائلة على استيعاب كم هائل من البيانات و القدرة على تحليلها على اختلاف أشكالها (تنوع الآثار و الميمات القابلة للتحليل) و سرعة التقاط هذه البيانات و معالجتها، إلا أن هذه المناهج لا تسعى لتفسير العلاقة بين الظواهر و المتغيرات، و لا تعتمد على الفهم و استجلاء المعاني من الفاعلين و تأويلها، فالخوارزميات المتحكممة في هذه

المناهج تتعامل كميًا و حسابيًا فقط مع البيانات، دون التفكير فيما يتم جمعه و قياسه، و من ناحية أخرى فليس كل شيء يقبل القياس الكمي، و ما يمكن قياسه ليس بالضرورة له علاقة بما نريد معرفته و البحث فيه، فهذه المناهج الحاسوبية لا تنتج المعارف بل تسهم في إنتاجها فقط، إنها تشكل امتداد للبرامج و الآلات الحاسبة في البحوث التقليدية. (العياضي، 2022، ص 18-19)

إن تشكل المجتمعات الافتراضية و بروز الثقافات و الهويات الرقمية و أشكال جديدة من التفاعل بين المستخدمين، يجعل من الصعب على المناهج و أدوات البحث الكمي الإحاطة الشاملة بالظواهر من مختلف جوانبها إن فهم و تأويل الرموز التعبيرية و الإيموجي يتطلب أكثر من مجرد إحصائها كميًا، كما هو الحال في الواقع فالإيماءات و الإشارات و مختلف أشكال الاتصال الغير لفظي لا يتم فهمها من خلال القياس و التكميم إنما من خلال التأويل و إعطاء المعاني في إطار السياق الذي تحدث فيه.

إن التغير الرقمي السريع و تعقيدات البحث الإثنوغرافي في الفضاء الإلكتروني لا يجب التفكير فيها كمشاكل و عوائق، لكن لابد من النظر إليها كمؤشرات للتغيير الثقافي و المجتمعي الذي تمر به المجتمعات بفعل التقنيات الرقمية، وفي هذا الإطار يقول بلومبرث "إن إحدى السمات الغير مثيرة للجدل للإثنوغرافيا هي أنها تتناول التعقيد، فهي لا تحاول تقليل تعقيد الأحداث الاجتماعية بعكس العديد من الأساليب البحثية الأخرى، لكنها تحاول وصف و تحليل تعقيد الأحداث الاجتماعية بشكل شامل". (Varis, 2014, p 17)

إن تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي و الواقع المعزز (المتافيرس) و الطابعات ثلاثية الأبعاد ستؤدي بلا شك إلى إحداث تغييرات في الأنماط الثقافية و حياة الأفراد و قيمهم و رؤيتهم للعالم ما يدفعهم لتطوير مهاراتهم في التعامل مع الوسائط الرقمية، ما سيوفر للباحثين الإثنوغرافيين فرصا واسعة و تحديات منهجية، تعمل التكنولوجيات الجديدة على تغيير وسائل الملاحظة و المشاركة في دراسة المواقع الإثنوغرافية، أصبح بإمكان الباحثين في الكثير من الحالات استخدام الصور الرمزية (الأفاتار) و الذهاب لعدة مواقع في وقت واحد. (Howard, Mawyer, 2015, p 13)، إن العنصر الحاسم في العمل الإثنوغرافي هو استفادة الباحث من التزامه بتصميم الرقمي، و بمعنى آخر تطويع الرقمي و استخدامه في أنواع العمل التي يسعى الباحث للقيام بها. (هورست، و ميلر، 2020، ص 560)

خاتمة:

تحتاج علوم الإعلام و الاتصال كغيرها من العلوم الإنسانية إلى التجديد و التطوير في مناهجها و أدواتها البحثية و استحداث مقاربات جديدة لفهم و تفسير الظاهرة الاتصالية خاصة و أنها مرتبطة بالتطور التكنولوجي، إن البيئة الرقمية و الوسائط الجديدة أحدثت تحولات هائلة في الثقافة و الهوية الفردية و الجماعية، فكان لزاما على الباحثين في هذا الحقل المعرفي تكييف المناهج الكلاسيكية و العمل على تطوير مناهج جديدة تتلاءم و البيئة الرقمية، و توظيف الإثنوغرافيا في دراسات الوسائط الجديدة يظهر قناعة الباحثين بملائمة هذه المقاربة في تجاوز التوجهات الكمية التي أثبتت في الكثير من الأحيان عجزها في السياق الرقمي.

و نصل من خلال هذه الورقة البحثية إلى النتائج التالية:

- إن البحوث الإثنوغرافية لا تزال تعاني من عزوف الباحثين على تبنيها في مقاربة الظاهرة الاتصالية في دراسات الوسائط الجديدة و ذلك لعدم إلمامهم بإجراءاتها المنهجية و أدواتها البحثية نظرا لضعف التكوين الجامعي في هذا المجال، و بالتالي هيمنة البحوث الكمية على الدراسات الإعلامية و الاتصالية، خاصة في الوطن العربي.

- إن العديد من الجامعات الغربية قد حققت تقدما ملحوظا في تطبيق الدراسات الإثنوغرافية و تسعى لاستثمار العدة التقنية و ما تتيحه التكنولوجيا في تطوير هذا النوع من الدراسات الكيفية، تماشيا مع طبيعة و خصائص الظواهر في البيئة الرقمية.

- إن تطور البحوث الإثنوغرافية الرقمية يبقى مرتبطا بالأساس بالجهود البحثية التي يبذلها الباحثون و مدى قدرتهم على تكييف هذه المقاربة في السياق الرقمي، و مدى قدرتهم على استغلال التكنولوجيا و توظيفها لتحقيق أغراض البحث الإثنوغرافي.



• قائمة المصادر والمراجع:

• الكتب:

- أبو المعاطي ماهر علي: الاتجاهات الحديثة في البحوث الكمية و الكيفية و دراسات الخدمة الاجتماعية، ط1. المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية. مصر، 2014.
- إيمرسون وآخرون: البحث الميداني الإثنوغرافي في العلوم الاجتماعية. ط 1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، 2010.
- جوبو جيامبيترو: إجراء البحث الإثنوغرافي، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، 2014
- حمداوي جميل: الأنثروبولوجيا و الإثنولوجيا و الإثنوغرافيا مقارنة مفاهيمية. ط 1. دار الريف للطبع و النشر الإلكتروني. تطوان. المغرب. 2020.
- عماد عبد الغني: منهجية البحث في علم الاجتماع الإشكاليات التقنيات المقاربات، ط 1، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، 2007.
- هورست و ميلر: الأنثروبولوجيا الرقمية، ط 1، هيئة البحرين للثقافة و الآثار، المنامة، البحرين، 2020.
- Angrosino Michael, Doing Ethnographic and Observational Research. sage publications. London. United Kingdom. 2007.

• المقالات:

- بصيص الطاهر، قدي عبد الرحمن: الإثنوغرافيا الافتراضية و استخداماتها في دراسات الوسائط الجديدة". مجلة الرسالة للدراسات و البحوث الإنسانية، المجلد 07 ، العدد 04، 2022. ص 83-95.
- بطاهر هشام: الصراع الكمي الكيفي رجعة منهجية و فرملة للبحث العلمي في البيئة الرقمي، مجلة رقمنة للدراسات الإعلامية و الاتصالية، المجلد 1، العدد 2، 2021، ص 42-60.
- بلغيثية سميرة: استخدام المقاربة الإثنوغرافية في بحوث جمهور وسائل الإعلام، المجلة العربية في العلوم الإنسانية و الاجتماعية، المجلد 10، العدد 4، 2018، ص 747-755.
- بلقي فطوم، سيفون بابة: الإثنوغرافيا منهج حديث في الفضاء الاتصالي الجديد، مجلة الخلدونية، المجلد 13، العدد 1، 2021، ص 39-55.
- بوجفجوف الزهرة: المقاربة الإثنوغرافية في المجتمعات الافتراضية توجه بحثي معاصر في الفضاء الاتصالي الجديد، المجلة الدولية للاتصال الاجتماعي، المجلد 9 العدد 2، 2022، ص 276-288.
- تمار يوسف: إشكالية استخدام المنهج الإثنوغرافي في الدراسات الإعلامية و الاتصالية، مجلة إسهامات للبحوث و الدراسات، المجلد 03، العدد 02، 2018، ص 01-12.
- دهان مريم: المقاربة الإثنوغرافية تعريفها مميزاتا و تقنياتها و علاقتها بدراسات الجمهور، مجلة تاريخ العلوم. العدد 08، المجلد 01، 2017، ص 31-43.
- العياضي نصر الدين: مناهج البحث في علوم الإعلام و الاتصال في السياق الرقمي: خلافا و اختلاف". مركز الجزيرة للدراسات.
- هميسي نور الدين: الأطر النظرية و المنهجية لدراسة الميديا الجديدة-قراءة نقدية، مجلة علوم الإنسان و المجتمع، العدد 12، 2014، ص 61-86.

- Howard Alan, Mawyer Alexander, ethnography in the digital age, 2015, p 1-15.

https://alanhowardanthro.net/Documents/Ethnography_in_the_Digital_Age.pdf



https://www.researchgate.net/publication/320928917_Digital_Ethnography

- https://www.tilburguniversity.edu/sites/default/files/download/TPCS_104_Varis_2.pdf
- Kaur-Gill, Dutta, digital ethnography, the international encyclopedia of research methods, 2017, p1-10.
- Varis, Piia, Digital Ethnography, tilburg papers in culture studies, 2014, p 1-21.